أم تعني ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ لكلّ من القاعدين والمجاهدين فإن كلاً درجات، وتفضيل المجاهدين - ككل - على القاعدين - ككل - هو بفضل الجهاد درجة، ولكن مع الوصف ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾[1] ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾[2] ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[3].

أفليس المجاهد في سبيل الله بنفسه دون ماله، والمجاهد بماله دون نفسه، والمجاهد بماله ونفسه، ثم كلٌّ حسب درجات عمله ونيته، أليس هؤلاء درجات؟.

أو ليس القاعدون أولو الضرر وغير أولي الضرر، ثم كلٌّ حسب نيته وطويته، درجات، إذاً فتفضيل المجاهدين في سبيل الله على القاعدين بدرجة، لا يعارض ﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾ فإنها تشمل درجة التقابل بينهما ودرجات كلٍّ بين قبيله ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ لمن يستحقه ﴿رَّحِيمًا﴾ من يأهلها، ما لم يكن الغفر والرحمة خلاف العدل.

ثم الجهاد في قولٍ فصلٍ ليس ملابسة طارئة من ملابسات الفترة المدنية، لا سيما وأنه لا يختص بالقتال، فالمؤمن حياته جهاد في كلّ قضايا الإيمان الحركية.

أجل، وإنه ضرورة تصاحب ركب هذه الدعوة السامية على مدار الزمن الرسالي، وليس كما توهمه بعض أن الإسلام نشأ في عصر الإمبراطوريات فكان لا بدّ له من حفظ التوازن من قوةٍ قاهرةٍ يهاب منها، كيف وقد أمر بقتال

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٣٢.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٦٣.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٨٣.

الكفار المشاغبين إزالة لكل فتنة: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾[١] ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ﴾[٢].

فالحياة الإسلامية حياة جهادية سلباً للفتن وإيجاباً لصالح الحكم العالمي المحلِّق على كلّ المكلفين، وليس كما يتقوله بعض النسناس أن الإسلام دين السيف الشاهر التوسُّعي، إنما هو سيف للحفاظ على النواميس، وتثبيت المتاريس دفاعاً عنها وإصلاحاً للناس.

فالجهاد - إذاً - فطرة وجِبلّة إسلامية وليست ملابسة وقتية ومصلحية طارئة، فلقد كان يعلم الله أنه أمر يكرهه الطغاة البغاة، أصحاب الشهوات والسلطات الجهنمية.

ويعلم أن الشرّ متبجح لا يدع الخير ليوجد أو ينمو، فالخير بمجرد نشوئه خطر على الشر فضلاً عن نموه، فلا بدّ للخير من قوة دفاعية على طول الخط ليحافظ على نفسه وعلى أنفس المستضعفين وليكون الدين كله لله.

ولا بدّ أن يكون للخير أسلحة مكافحة في كافة الحقول النضالية ثقافية وعقيدية وخلقية وسياسية واقتصادية وحربية: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[٣].

ذلك فضل الجهاد في سبيل الله ويلحقه القعود عن عذر دون إضرار بصف المجاهدين وأما القاعدون أولو الأضرار، المتخلفون عن ركب الجهاد دونما أعذار فـ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣٩.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٢٧.
(٣) سورة الأنفال، الآية: ٦٠.

ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾:

إن المستضعف في الأرض في أيٍّ من حقوله ولا سيّما العقيدي والعملي، ليس معذوراً في استضعافه بشرف هذه الكلمة البراقة ما دامت حجة الحق له بالغة أم هي بمتناوله، فإنما يوزن بأبعاد استضعافه وأسبابه.

فالمستضعف في دينه، الذي بإمكانه ترك بلد الاستضعاف إلى غيره حفاظاً على إيمانه، أو الذي بإمكانه الاستقامة على إيمانه استعانة فيه بطاقات ذاتية وغيرها، إنه لا يُعذر بتقصيره حيث ظلم نفسه بقعوده وتخاذله أمام المستكبرين، وليس هو من القاعدين أولي الضرر حتى يسوى بالمجاهدين، ولا غير أولي الضرر ولا الإضرار حتى تشمله الحسنى، بل هو من القاعدين أولي الإضرار بأنفسهم وبالمجاهدين.

و«المستضعف» لغوياً هو من طُلب ضعيفاً أو وجد ضعيفاً، وهذه شيمة المستكبرين أنهم يرون مَن سواهم ضعفاء أمامهم فيستضعفونهم طلباً للضغط عليهم وحملهم على ما يريدون.

ثم المستضعفون هم ثلاث فرق، فرقة أقوياء صامدون في إيمانهم وليست لهم عِدَّة وعُدَّة في حساب المستكبرين، فلا يؤثر فيهم عامل الاستكبار وعملائه، بل ويزدادون أمامهم صموداً في إيمانهم، وهم الرعيل الأعلى من أهل الله من المقربين والسابقين وأصحاب اليمين، وقد تعنيهم: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ . . .﴾[1].

فهم أولاء أقوياء وليسوا ضعفاء حتى يرجعوا أغوياء، فإنما طُلب

(١) سورة القصص، الآية: ٥.

ضعفهم من قبل المستكبرين، إذ ليس عندهم عِدَّة ولا عُدة من مظاهر القوة.

وتُقابلهم تماماً فرقة أخرى هم الضعفاء في إيمانهم تحصيلاً أو حاصلاً تقصيراً في مبادئِه وتطبيقاته، فيستضعفهم المستكبرون أن يجدوهم ضعفاء، فيجدوا فيهم آمالهم المضللة ضغطاً عليهم في ضلالات عقيدية وعملية أماهيه وهم المعنيون به ﴿ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ . . .﴾.

وثالثة هم عوان بينهما، تعنيهم ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ . . .﴾ فإنهم ضعفاء عن قصور مطلق أم خليط منه، ومن تقصير في إبقائهم في جوِّ الاستكبار ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ ولا سيّما الآخرين منهم، حيث الأولون «الولدان» الذين يعيشون قصوراً طليقاً لا حول عنه ليسوا من المذنبين، فالعفو عنهم عفوي، خلاف العفو الأول فإنه رحمة زائدة في عساه وواقعه.

فـ «ولا يقع اسم الاستضعاف على من بلغته الحجة فسمعتها أذنه ووعاها قلبه»[١] إنما هو الذي أسلم نفاقاً[٢] أو وفاقاً ولمّا يدخل الإيمان في قلبه بأسره أم بصورة مطمئنة له، فقد يستضعف لضعف إيمانه، وعليه الهجرة بدينه حفاظاً عليه إلّا ألا يجد حيلة ولا يهتدي سبيلاً.

وقد يروى عن الصادق عليه السلام قوله سناداً إلى هذه الآية «بعد أن أمر بالكلام بما ينفع ولا يضر فإن لم تجد السبيل إليه فالانقلاب والسفر من بلد

(١) نهج البلاغة عن الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام.

(٢) الدر المنثور ٢: ٢٠٦ عن ابن زيد في الآية قال: لما بعث النبي صلى الله عليه وآله وظهر ونبع الإيمان نبع النفاق معه فأتى إلى رسول الله صلى الله عليه وآله رجال فقالوا يا رسول الله: لولا أنا نخاف هؤلاء القوم يعذِّبونا ويفعلون ويفعلون لأسلمنا ولكنا نشهد أن لا إله إلّا الله وأنك رسول الله، فكانوا يقولون ذلك فلما كان يوم بدر قام المشركون فقالوا: لا يتخلَّف عنا أحد إلّا هدمنا داره واستبحنا ماله فخرج أولئك الذين كانوا يقولون ذلك القول للنبي صلى الله عليه وآله معهم فَقُتلت طائفة منهم وأسرت طائفة، فأما الذين قُتلوا فهم الذين قال الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ . . .﴾ [النّساء: ٩٧] ثم عذر الله أهل الصدق فقال: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ . . .﴾ [النّساء: ٩٨].

إلى بلد وطرح النفس في بوادي التلف بسيرٍ صافٍّ وقلبٍ خاشعٍ وبدنٍ صابرٍ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ . . .﴾[1].

وقد نزلت ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ . . .﴾ فيمن تخلفوا عن مهجر الرسول ﷺ وأكثروا سواد المشركين على رسول الله فقتلوا في الحرب[2] مما يؤكد أن المُقام في مَقام الكفر الذي يضعف ساعد الإيمان ويقوي ساعد الكفر مما لا يساعده الإيمان ولا يسامح عنه، فحكمه حكم الكفر، وكما تجب محاربة المسلمين الذين تترس بهم الكفار وهم بإمكانهم الهجرة عنهم.

وترى المتخلفين عن الهجرة المكثرين سواد المشركين على الرسول ﷺ ولمّا يتوفَوا، أنهم لا توبة لهم؟ النص يفرض لهم جهنم المأوى وسوء المصير إذا توفوا بحالتهم البئيسة:

﴿ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ فالذين يتوفون وهم تائبون ليسوا من أصحاب الجحيم، وهكذا يعالج القرآن نفوساً بشرية طائشة، هادفاً إلى استجاشة عناصر خيّرة تتحرى الحق وهم جاهلوه، مطارداً عوامل التناقل عن الهدى.

---

(١) مصباح الشريعة عن الإمام الصادق عليه السلام.

(٢) الدر المنثور ٢: ٢٠٥ عن ابن عباس أن ناساً من المسلمين كانوا مع المشركين يكثرون سواد المشركين على رسول الله ﷺ فيأتي السهم يرمي به فيصيب أحدهم فيقتله أو يضرب فيقتل فأنزل الله هذه الآية وفيه عنه قال: كان قوم من أهل مكة أسلموا وكانوا يستخفون بالإسلام فأخرجهم المشركون معهم يوم بدر فأُصيب بعضهم وقُتل بعض فقال المسلمون: قد كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأُكرهوا فاستغفروا لهم فنزلت هذه الآية قال: فكتب إلى من بقي بمكة من المسلمين بهذه الآية وأنه لا عذر لهم فخرجوا فلحقهم المشركون فأعطوهم الفتنة فأُنزلت فيهم هذه الآية ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ . . .﴾ [العنكبوت: ١٠] فكتب المسلمون إليهم بذلك فحزنوا وأيسوا من كلّ خير فنزلت فيهم ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٠] فكتبوا إليهم بذلك أن الله قد جعل لكم مخرجاً فاخرجوا فخرجوا فأدركهم المشركون فقاتلوهم حتى نجا من نجا وقتل من قتل.

ومشهد الاحتضار مما ترتجف له النفس، احتفازاً لتصور ما فيه وما يحويه والملائكة يتوفونها وهي ظالمة.

والتوفي هو الأخذ وافياً، دون أن يتفلت منهم روح ولا جسم رداً على تقوُّل القائل: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ﴿١١﴾﴾[1] وترى ﴿تَوَفَّتۡهُمُ﴾ ماضية تختص بمن توفاهم من ذي قبل؟ ولا يختص ذلك التوفي بزمن دون زمن!.

﴿تَوَفَّتۡهُمُ﴾ هي مخففة عن «تتوفاهم» ولو كانت ماضية لكان الأفصح «توفتهم» كما ﴿تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ﴾[2]، ﴿فَكَيۡفَ إِذَا تَوَفَّتۡهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ...﴾[3].

ثم ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ...﴾[4]. و﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَۖ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُۙ﴾[5] قرينة صالحة هي الأخرى ترجح مضارعة الصيغة، حيث تعني تداوم المُصاغ له، وهو ذلك التوفي على مدار الزمن.

و﴿ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ تعم كلّ ظلم حيث الظلم بالغير يعود إلى نفس الظالم بتبعته، فهم هنا أعم ممن ترك المهاجرة فظل ضالاً بالاستضعاف، أم وأضل من سواه فـ ﴿لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا ﴿٤٥﴾﴾[6].

ومن لطائف اللمحات في ﴿ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ أنها تخرج التائبين حال

(١) سورة السجدة، الآيتان: ١٠، ١١.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٦١.
(٣) سورة محمد، الآية: ٢٧.
(٤) سورة النحل، الآية: ٢٨.
(٥) سورة النحل، الآية: ٣٢.
(٦) سورة الأعراف، الآيتان: ٤٤، ٤٥.

التوفي إذا كانوا صادقين، فليس التائب عن ذنبه أياً كان وأيان من ﴿ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ حيث التوبة فرض وخلافها ظلم على ظلم.

ولو قال «ظالمي غيرهم» لم يشمل إلّا الظالم غيره حال توفيه، ولكنه يعم كلّ ظالم نفسه حال توفيه وهو غير التائب، حيث التوبة رحمة واجبة على نفس الظالم أياً كان، إذا - فصالح التعبير هو ﴿ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ كما هنا دون «الظالمين» أو «ظالمي غيرهم» حيث القصد عدم حالة التوبة الصالحة حال التوفي.

ففي اللحظة الأخيرة من حياة التكليف ولات حين مناص وقد فات يوم خلاص، والملائكة يتوفونهم ظالمي أنفسهم باستجواب حاسم قاصم ﴿قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡ﴾ وأنتم ظالمون لا تفيقون عن الغفوة ولا تستيقظون عن الغفلة، ﴿فِيمَ كُنتُمۡ﴾ من مكان ومكانة ومكنة لإصلاح أنفسكم وقد كنتم تعلمون أن أمامكم عقبة كؤودة لا بدّ من الورود عليها.

ذلك وقد كانوا في ميوعةٍ وضياعٍ، يخيَّل إليهم أنهم كانوا يحسنون صنعاً أو يُعذرون حيث هم مستضعفون.

﴿قَالُوٓاْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ وَجدونا ضعفاء لا أنصار لنا يناصرونا، فتحكّموا علينا بضعفنا إذ لم نكن نملك من أمرنا شيئاً، فاضطرونا لإكثار سوادهم بنا على الرسول ﷺ ولم يحررونا لكي نلتحق بسائر المسلمين، فنحن إذاً معذورون.

وهنا نتأكد أن ﴿فِيمَ﴾ تشمل المكانة إلى المكان والحالة الروحية والعملية، حيث ﴿كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ تشملها.

﴿قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ. . .﴾ وقد كان لكم أن تهاجروا دار الظالمين المستكبرين فلم تفعلوا، واثاقلتم إلى الأرض تقديماً لأموالكم ومصالحكم الوطنية، وابتعاداً عن مضاعفات الهجرة إلى الله وملابساتها.

و﴿فِيهَآ﴾ هنا دون «منها» إذ لا معنى للمهاجرة من ﴿أَرْضُ ٱللَّهِ﴾ ككلٍّ، لسكنة الأرض، إذاً فنطاق المهاجرة إنما هو ﴿فِيهَآ﴾ بضمنها، وقضيتها لكل ساكن في كنف من أكنافها مضطهداً في إيمانه، أن يهاجر منها إلى كنف آخر لا اضطهاد فيه أو يقل، إذاً فليست المهاجرة إلّا ضمن ﴿أَرْضُ ٱللَّهِ﴾ من هنا إلى هناك.

أجل، فقد سلمتم أنفسكم تحت أنيار الاستضعاف وكانت لكم فسحة الهجرة إلى سائر أرض الله الواسعة حتى توفاكم الملائكة ظالمي أنفسكم ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ وهل ترى أن تلك المحادثة الاستجواب هي قبل الموت بلحظة؟ والملائكة لا تكلم المكلف في حياة التكليف ولا سيّما الظالم نفسه! ثم ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾ تنحّي كينونة التكليف الماضي، إذاً فهي منذ لحظة اللّاتكليف، كما «كنا» تؤيدها، ولو أنهما كانت في أخريات لحظات حياة التكليف لكانت التوبة واردة لمن يتوب توبة واقعية كما في قسم من آيات التوبة.

إذاً فتلك المحادثة هي بعد توفيهم مما يدل على الحياة البرزخية، وتلك هي من مساءلات القبر يعني بعد الموت، لا - فقط - القبر التراب.

فقد تبدأ المساءلة منذ اللحظة الأولى بعد الموت، دون تأجيل لها إلى مواراته في القبر، فقد يغرق المكلف أو يحرق أو لا يدفن فليس له قبر، أو ليس له سؤال القبر!.

هنا ﴿أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً﴾ وكما في ثانية: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾[1] وثالثة: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾[2].

(١) سورة الزمر، الآية: ١٠.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٥٦.

هذه الثلاث تؤكد لنا سعة أرض الله لتقوى الله فراراً عن طغواه، فليهاجر المؤمن المستضعف فراراً بإيمانه وقراراً لإيقانه.

فالمستضعف المقصر غير معذور على أية حال فلا يعذر بلغة الاستضعاف بحال كما ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾[1] ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[2].

ذلك هو المستضعف المقصر وقد يعبر عنه القرآن بالضعيف في نفسه حتى تمكن المستكبر من استضعافه: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾[3] - ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾[4].

فالمستضعف الضعيف في نفسه مقصراً هو المحكوم عليه بما قصر، دون القاصر مهما كان له تقصير ما أم لم يكن له تقصير:

﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾﴾:

(١) سورة سبأ، الآية: ٣٢.
(٢) سورة سبأ، الآية: ٣٣.
(٣) سورة غافر، الآيتان: ٤٧، ٤٨.
(٤) سورة إبراهيم، الآية: ٢١.

فالمكلفون من المستضعفين الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً للمهاجرة عن دار المستكبرين، هم ليسوا من الموعودين بالعذاب.

وعلّ الاستثناء هنا منقطع حيث الماضون ﴿قَالُوٓاْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ ولم يكونوا في الحق مستضعفين، بل كانوا ضعفاء في أنفسهم مقصرين في ضعفهم.

أم هو متصل حيث المستضعف بين مقصّر في استضعافه وقاصر، فالأولون هم المقصرون والآخرون قاصرون.

ثم ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا﴾ هما متوافقان في عذر القصور، ومتفارقان في أن ﴿حِيلَةٗ﴾ هي العملية السرية للفرار عن دار المستكبرين، فإنها من أصل الحيلولة بين أمرين وغلب استعمالها في الحيلولة الخفية.

فهم لا يستطيعون حيلة للحيلولة بينهم وبين أنفسهم، فراراً إلى أرض أخرى، أم قراراً في أرض المستكبرين، بعيدين عنهم مستخفين حتى لا يصل إليهم كيدهم وميدهم.

ثم ﴿وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا﴾ إمّا سبيلاً للفرار طريقاً مسلوكة معروفة، أم طريقة نفسية تحجز عنهم كلّ دعايةٍ كافرةٍ بقوة الإيمان ثقافية وعقيدية.

والجامع بين الأمرين عدم الاستطاعة للخروج عن نير الاستضعاف العقيدي والعملي على أية حال و﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾[1] وهم ليس في وسعهم الهجرة بأية صورة لأنهم قاصرون.

والاستضعاف يعم العملي إلى العقيدي، ولكنما الثاني أخف وطأة وعذاباً، و﴿مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾[2] قد يختص بالأولين، أم هو أعم من الخلود أبدياً وسواه.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٩٧.